دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	هل يستطيع علم النفس أن يكون علم العقل ؟
المصدر:	التعريب
الناشر:	المركز العربى للتعريب والترجمة والتأليف والنشر
المؤلف الرئيسي:	سكنر، ب. ف.
مؤلفين آخرين:	القلا، فخر الدين(مترجم)
المجلد/العدد:	مج 1 , ع 2
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1991
الشهر:	كانون الأول
الصفحات:	31 - 40
رقم MD:	12789
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	تنمية المهارات، علم النفس، الفلسفة، العقل البشري، القدرات العقلية، مهارات التفكير، السلوك، الشخصية، الاستجابة، التعزيز (علم نفس)
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/12789

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

هل يستطيع علم النفس أن يكون علم العقل ؟*

ب . ف . سكنر B.F. Skinner

تعريب : الأستاذ الدكتور فخر الدين القلا
وكيل كلية التربية بجامعة دمشق

قام علماء النفس ، كما قام الفلاسفة قبلهم ، بالنظر إلى جُوّانيتهم لتفسير سلوكهم ، فكانوا يشعرون بمشاعرهم ويلاحظون العمليات الذهنية عن طريق الاستبطان . ولكن الاستبطان لم يكن مجدياً على الإطلاق .

وقد اعترف الفلاسفة بعدم مناسبة منهج الاستبطان ، ولكنه ، مع ذلك ، بقي الوسيلة الوحيدة للتعرف على الذات . وحاول علماء النفس تحسينه باستخدام ملاحظين مدربين وأدوات اصطناعية قلل وليم جيمس من قيمتها ، ولذلك لم يعد يستخدم الاستبطان كثيراً . أما علماء النفس المعرفيون فإنهم يرون أمثلة تبيّن أن الاستبطان هو الشيء الوحيد الذي يمكن رؤيته . ولكنهم لا يزعمون بأنهم يرون أنفسهم وهم يقومون بعمليات الاستبطان . أما علماء التحليل النفسي ، الذين واجهوا المشكلة نفسها في عمليات لا يمكن رؤيتها لأنها لا شعورية ، فقد عادوا إلى النظرية التي تحتاج إلى تأكيد ، ولذلك عاد الكثير منهم إلى علم العقل ، حيث يمكن البحث فيه عن العمليات الظاهرية لا الجوانية . فإذا كان العقل هو «ما يقوم به الدماغ»، عندها يمكن دراسة الدماغ كأي عضو آخر ، وبالتالي فإن علم الدماغ يجب أن يفسر لنا كيف يُصوَّر الواقع في الدماغ ، وكيف تخزن هذه التصورات في الذاكرة ، ويتحول الانتباه إلى عمل ، ونشعر بالفرح والأسى أو نتوصل إلى استنتاجات منطقية إلى آخر ذلك .

ولكن هل يؤدي العقل إلى السلوك مثلما يقال عن عمل العقل والنفس ؟ فالدماغ جزء من الجسد ، وما يقوم به هو جزء من عمل الجسد ، ولذلك فإن ما يقوم به الدماغ هو جزء مما يجب تفسيره . فمن أين يأتي عمل الدماغ الجسدي ؟ bodycum-brain ، ولماذا يُغيِّر طرائقه الحاذقة من لحظة لأخرى ؟

---

* نشر هذا البحث في مجلة «عالم النفس الأميركي American Psychologist» ـ العدد رقم 11 تشرين الثاني/نوفمبر 1990 ـ المجلد 45 .

إننا لا نستطيع الإجابة عن هذا النوع من الأسئلة المتعلقة بالدماغ الجسدي سواء لدى ملاحظته بالاستبطان أو باستخدام أجهزة وطرائق من علم وظائف الأعضاء (الفيزيولوجيا) .

إن سلوك العضويات ككل هو نتاج ثلاثة أنواع من الاصطفاء . الأول هو الاصطفاء الطبيعي ، وهو المسؤول عن تطور الأنواع ، وبالتالي تطور سلوك الأنواع ، وتؤدي مختلف أنواع التنوع والاصطفاء إلى أخطاء معينة ، أحدها مهم في الاصطفاء الطبيعي ، لأنه يهيء النوع للمستقبل الذي يمثل الماضي المصطفى ، ويجعل سلوك الأنواع فعالاً في العالم الذي يمثل بدقة العالم الذي تطورت فيه الأنواع فحسب .

ولقد صحح هذا الخطأ بتطور نوع آخر من التنوع والاصطفاء هو الإشراط الإجرائي ، الذي تصطفى فيه تنوعات سلوك الفرد من مظاهر في بيئة غير مستقرة فتقوم بدورها في التطور . فالإشراط الإجرائي هو سلوك يعزز أو يقوي أو يزيد من احتمال حدوثه عن طريق نوع من آثاره وعواقبه التي ينبغي أن تكتسب قوتها التعزيزية عن طريق الاصطفاء الطبيعي .

ويحدث خطأ آخر في التنوع والاصطفاء في الإشراط الإجرائي عندما نضطر إلى انتظار حدوث التنوع حتى نصطفي منها (العمل المرغوب)* ولذلك تكون مثل هذه العملية بطيئة في الغالب ، ولذلك لم تكن هذه من مشكلات الاصطفاء الطبيعي ، لأن التطور فيه يحتاج إلى ملايين السنين . أما في مخزون السلوك الإجرائي فلا بد من إنشاء الاصطفاء خلال حياة الفرد ، ولذلك يجب أن يحل الإشراط الإجرائي مشكلة (الحادثة الأولى) .

إذ كيف تحدث الاستجابات ، وماذا يحدث قبل أن نعززها ؟

لقد حلت المشكلة جزئياً بتطور العملية التي يستفيد فيها الأفراد من السلوك السابق الذي اكتسبه الآخرون ، عن طريق التقليد ، إذ يستطيع الفرد المقلد مثلاً أن يلمس الآثار المعززة للسلوك الذي قلده ، ولذلك يعتبر السلوك المقلَّد حادثة (أولية) جرت أول مرة ، ويحتمل في الغالب تعزيزها وبالتالي يمكن للنوع البشري أن يمارس خطوة فريدة في التطور . وقد تقوم الأنواع الأخرى بالتقليد ، إلا أنها تقتصر على تقليد النماذج السلوكية الناتجة عن الاصطفاء الطبيعي فحسب . ولذلك يصعب وضع عواقب السلوك المقلَّد في نماذج لتعزيزها اجرائياً ، فالإنسان هو النوع الوحيد القادر على تعزيز السلوك النموذجي المقلَّد .

وخضعت الأنواع إلى تغيير تطوري فريد آخر عندما خضعت عضلاتها الكلامية إلى التحكم الإجرائي فتشكّل لديها السلوك الكلامي أو اللفظي عن طريق الآثار والعواقب

---

* (إضافة من المعرب) .

لمعززة له . ولذلك يمكن للانسان القيام بالتقليد (الأولي) للآخرين ، باعلامهم ما ينبغي عمله ، أو عرض تلك الأعمال عليهم لتقليدها . (وفي خطوة تالية يفترض أن تضاف العواقب المعززة لتبقى على السلوك المعزز آنياً ، وأولياً فيقوى ويحدث ثانية ، وإن إضافة هذه المعززات الآنية يسمى تعليماً) .

ويمكن أن تفيد النصيحة في أكثر من مناسبة ، ولذلك يمكن تعليمها وتقديمها لتنقل من شخص لآخر ومن جيل لآخر ، والأمثال والحِكَم هي أمثلة على ذلك ، فهي تصف ترتيبات التعزيز العام ، شأنها شأن المال والأشياء التي تدخر وتكسب لأجيال تالية . والقواعد كالأمثال تنقلها الجماعات بقوة تعزيزية أكبر لعواقبها . وتصف قوانين الحكومات والأديان العواقب التعزيزية (غالباً ما تكون بطريقة سلبية) ، وذلك لصيانة تلك المؤسسات والحفاظ عليها ، فهي تحمل طابع الانذار والتحذير . ولذلك فإن اتباع الشخص للقوانين يزوده بالسلوك المناسب الذي يُجنّبه العقاب . وتصف قوانين الفيزياء والكيمياء ترتيبات التعزيز الذي تحافظ عليها البيئة الطبيعية وهي «قواعد من أجل العمل الفعال» .

إن النمذجة والكلام والتعليم هي وظائف تقوم بها البيئات الاجتماعية لتكوين الثقافة ، إذ تمتزج مختلف الثقافات في عواقب التنوع والاصطفاء المتباينة ، ولذلك تتباين في مدى مساعدة أعضائها على حل مشكلاتهم . فالأعضاء الذين يحلّون تلك المشكلات أكثر احتمالاً على البقاء ، وتبقى معهم ممارساتهم وثقافاتهم . وبعبارة أخرى تتطور الثقافة بنوع ثالث من التنوع والاصطفاء . (فالثقافات التي تصوغ السلوك الاجرائي وتحافظ عليه هي المجتمعات البشرية حصراً ، أما المجتمعات الحيوانية ففيها مظاهر شبيهة عديدة ، ولكنها تستمر نتيجة عواقب البقاء) . والتطور الثقافي ليس عملية حيوية بل هو نوع من التنوع والاصطفاء الذي يحتمل أن يرتكب الأخطاء نفسها . وتحاول الثقافة أن تهيء الجماعة لعالم يمثل العالم الذي تطورت فيه الثقافة ، ولذلك نوليها الاهتمام الراهن من أجل مستقبل الكرة الأرضية التي نقطنها .

وتتعرض عملية التنوع والاصطفاء إلى خطأ ثالث . فالتنوع يبقى عشوائياً ويحدث التعزيز مصادفة ، وإن ما تطور ليس نوعاً واحداً من النوع بطيء التطور بل تطورت ملايين من الأنواع المختلفة المتبارية فيما بينها لتتبوأ مكانتها في هذا العالم ، ولذلك فإن نواتج الإشراط الإجرائي لا تقتصر على مخزون متماسك بل آلاف المخزونات من التحصيلات الصغيرة ، ولا بد من حل ما للصراعات القائمة ، ولذلك أنتج تطور البيئات الاجتماعية ثقافات عديدة متصارعة ، في الأغلب ، فيما بينها .

ومع أن الضبط الإجرائي للسلوك الكلامي الفعلي خاص بالنوع البشري إلا أنه نادراً ما تذكره مظاهره المتميزة ، ولكنه يكثر الحديث عن وجود «الوعي» أو «الوعي الواعي» أو غيابه . واستمر دور الدماغ والعقل يشكل مشكلة في الموازنة بين الأنواع . فقد استثنى ديكارت «الانسان» من نموذجه الآلي عن العضوية وذكر والاس ، خلافاً لدارون ، بأنه لا يمكن بأن التطور يمكن أن يفسر العقل البشري . وقدّم علماء الدماغ تحفظات مماثلة ، واعتبر علماء التطور فكرة «الذكاء الواعي» سمة متطورة ولكنهم لم يبينوا كيف تحدث التنوعات غير الطبيعية عن طريق عوامل البقاء التعزيزية . (وهذا الاقتراح يبعد ببساطة النظر إلى الإزعاجات الناتجة عن التمييز بين الحوادث الطبيعية ، وما وراء الطبيعة) . وقد تبين أننا لا نعرف كيف تطور العقل الواعي ، لأنه لا يوفر شيئاً يمكن أن يكشفه للعاملين في التاريخ الانساني القديم ، ولكن التحكم بالسلوك العضلي الكلامي تحكماً اجرائياً ، وما نتج عن هذا التطور من العرض والكلام والتعليم يمكن الإبقاء عليه وبمساعدتها تفسير الاستبطان وما يمكن «رؤيته» بالاستبطان .

(ويناقش سكنر جذر كلمة استبطان بالانكليزية ولواحقها Introspection فالجذر Spect تتعلق بالرؤية وكامل الكلمة يعني «الرؤية الجوانية» ويستخلص منها أن ما نراه عن طريق الاستبطان هي المراحل الأولى من سلوكنا أي قبل أن يؤثر السلوك في البيئة ، أو ما يعرف بعلم النفس باسم المثيرات السابقة للاستجابة والتي يعتقد أنها مسببة له ، ولكنه يرفض النظر إلى الجزء (المثير) بل ينبغي النظر إلى السلوك الكلي الذي يجمع المثير والاستجابة والتعزيز) لأن هذا السلوك الكلي هو نتيجة التنوع والاصطفاء ولذلك يقترح أن تنظر إليه العلوم ككل دون تجزئة)(*) .

وإن الجذر spect يعني الرؤية . فنحن نقول بأننا «ننظر إلى» «او نرى» ما يحدث داخلنا دون أن يكون هناك عين داخلية . ولتجنب تحديد عضو الرؤية نقول «نلاحظ» و «نراقب» و «نبين» بدل من أن نقول «نرى» ولا بد من القول بأن الأفعال يلاحظ ، ويراقب ، ويبين ، وكذلك يلحظ تعني عملين معاً هما «يقول» و «يرى» . ويتأثر معناها بمكونات العالم أو العضو الذي يقوم بالعمل . وتميز نظريات المدخلات والمخرجات ، مثل نظرية المثير والاستجابة ، أو نماذج تشغيل المعلومات ، بين الإحساس والعمل . ونحن نقول بأننا نحس بالعالم قبل أن نعمل به . ولكن التحليل التجريبي للسلوك ينسب دوراً آخر للمثير . فالاستجابة الاجرائية يحتمل أن تكرر عند حضور مثير كان حاضراً عندما عززت الاستجابة سابقاً . فالاحساس هو إلى حد كبير نتاج التنوع والاصطفاء شأنه شأن العمل . إنه جزء من العمل . ولأسباب مماثلة يقوم الاصطفاء الطبيعي بتفسير استعدادات الحيوانات للاستجابة الفورية لمظاهر البيئة الهامة

* اضافة من المعرب .

من أجل بقاء أنواعها ، مثل حواس البصر ، السمع ، والرائحة الملائمة لغذائها أو الفرص الجنسية ، أو التهديد بالخطر بما فيها الخطر غير المألوف . ويفترض أن «تتلقى» الحيوانات ، جميع المثيرات التي تتسلط عليها ، ولكنها لا تستجيب إلا للمثيرات التي لعبت دوراً مهماً في ترتيبات لاصطفاء . (ولا نستطيع أن نعرف فيما إذا كانت الحيوانات الأعجمية ترى تلك المثيرات التي تلعب ذلك الدور ، لأننا لا نستطيع أن نهيء الترتيبات التي تتوافر فيها تلك المثيرات التي تكشف ذلك) . وقد نرى الأشياء التي لا نجد لها عملاً تطبيقياً (إذ نرى مثلاً الأشياء بعيدة التناول) ، ولكنها ممكنة الحدوث لأننا تحدثنا عنها . وإن رؤية الأشياء دون القيام بعمل تال لها هو بمنزلة (وعي) بها . (ونجد جذر كلمة (وعي)* في كلمة (وقي)* . فنحن نتقي الأشياء التي تسهم في ترتيبات التعزيز السلبي للاصطفاء) . أما كلمة «الوعي» فتستخدم في الغالب أكثر من كلمة «التقوى» وتعني المعرفة المشتركة لأن الكلمة باللاتينية تعني العلم المشترك أو المعرفة المشتركة مع الآخرين ، وهي كلمات بديلة للترتيبات اللفظية اللازمة لكلمة الوعي .

إن كل ذلك ذو أهمية خاصة عندما يكون ما نراه جوانيا داخل جسدنا ونستخدم لهذا النوع من الرؤية في الغالب كلمة الاستبطان . ولكن ماذا نرى في الواقع ؟ فإن علماء النفس الذين لا يقبلون الطبيعة الميتافيزية للحياة الذهنية يذكرون بأنهم ما يرونه خلال الاستبطان لا بد أن يكون الدماغ ، ولكن قلما يحدث ذلك . إذ لا تتوافر أعصاب حسية ترد إلى الأجزاء المهمة من الدماغ ؛ فالجراح يستطيع أن يجري العملية دون إحساس بالألم . ولا توجد ترتيبات اصطفائية حسنت من تطور تلك الأعصاب قبل حدوث السلوك اللفظي ، الذي حدث في المراحل الأخيرة من تطور الأنواع . إنه أكثر احتمالاً القول بأننا ما نراه عن طريق الاستبطان هي المراحل الأولى من سلوكنا أي المراحل التي تحدث قبل أن يبدأ السلوك عمله في البيئة .

ونسمي هذه المرحلة بالإحساس ، إذ نرى الأشياء قبل أن نستجيب لها بطريقة أخرى ، ونرى بأننا نراها في أثناء العمل بها وحدها دون القيام بعمل آخر . ويأتينا التعزيز الضروري من أناس يسألوننا فيما إذا كنا نرى الأشياء . أما بداية العمل فهي مرحلة مبكرة أخرى . وهي لا تطرح أسئلة عن توافر الأعصاب الحسية لأن علينا رؤية المراحل المبكرة للأعصاب اللازمة لإكمال العمل . (ويحتمل أيضاً أننا لا نقوم بأي استبطان بالمرة ، بل نستجيب للمثيرات الخارجية مجتمعة ، وعندما نقول «أنا سأقوم بكذا . . .» أعني أنه «في المواقف النظيرة قد قمت بكذا . . .» .

استخدمت بدلاً من كلمات نظيرة لها بالانكليزية هي Aware, wary مع المحافظة على المعنى وجزى التصرف ليناسب العربية (المعرب) .

ويقال بأن الإغريق هم الذين كشفوا العقل ، ولكن من الأرجح القول بأنهم أول من تحدث مطولاً عما رأوا داخل جوانيتهم ، وبالتالي أنشأوا الترتيبات اللازمة للاستبطان . فإن «المحاورات العظيمة» في أكاديمية أفلاطون خلقت الترتيبات التي يمكن بها رؤية بداية السلوك أكثر فأكثر . إنه عالم محيّر ، إذ نستطيع رؤية العالم من حولنا ونستطيع أيضاً أن نشعر به ، ونسمعه ونتذوقه ونشمه ، ولكننا لا نستطيع أن نعمل ذلك نحو عالمنا الداخلي باستثناء أننا (نراه) . ومن المدهش أن الإغريق دعوا ذلك بعالم ما بعد الطبيعة .

ولسوء الحظ ، فإن ما رأوه كان قد حدث في اللحظة والمكان الذي أطلقوا عليه خطأ بأنه السبب في العمل الذي قاموا به ، ولذلك كان من اليسير عليهم افتراض بأنهم كشفوا عن النفس أو العقل المدبر .

أما إذا أخذ ما رأوه هو ببساطة البداية المبكرة لما قاموا به من عمل فيما بعد ، عندها لا ننسب إلى العمل التالي بأنه سبب لبقية العمل ، والتي تشبه الرجوع إلى الخلف الذي يقوم به لاعب الغولف ، فهذه الرجعة ليست سبباً في الشوط الذي يصيب الكرة . إن الأجزاء الأولى من السلوك تؤثر في الأجزاء التالية ، إلا أن السلوك الكلي هو ثمرة عمليتي التنوع والاصطفاء .

إن مثل هذا التحليل للاستبطان والوعي الذي نراه بالاستبطان يحتاج إلى دراسة متأنية ، على أن نحافظ على كل جهد مبذول لأنه يتبعثر في أثناء حاجتنا لمعرفة خاصة ، أو لنوع خاص من المادة المعروفة . وتبقى هذه مجالات عالم الفيزياء والكيمياء وعلوم التنوع والاصطفاء . وبالتالي تتجنب أي تجزئة لعمليات التنوع والاصطفاء .

وظهر علمان راسخان محددان في مادتهما يحملان في مضمونهما آثاراً على السلوك الإنساني ، أحدهما علم وظائف الأعضاء (الفيزيولوجيا) الذي يبحث في الدماغ الجسدي أي في الأعضاء والنسج ، والخلايا والتغيرات الكهربائية الكيماوية التي تحدث داخلها . أما العلم الثاني فهو مجموعة من ثلاثة علوم تعنى بالتنوع والاصطفاء وتحدد الشروط التي يعمل بها الدماغ الجسدي في أية لحظة : فالاصطفاء الطبيعي لسلوك الأنواع (يسمى الأثولوجي) ، والإشراط الإجرائي لسلوك الفرد يسمى (تحليل السلوك) والثالث هو علم تطور البيئات الاجتماعية التي تعطي الأولوية للسلوك الإجرائي وتتوسع في مداه ليصبح جزءاً من علم الإنسان (الانتروبولوجيا) . ويمكن أن نترابط هذه العلوم الثلاثة على الشكل التالي : ـ

يدرس علم وظائف الأعضاء نتائج تنوع العلوم الأخرى التي تدرس نتاج علوم التنوع والاصطفاء ، فيعمل الجسد بالشكل الذي يعمل به وفقاً لقوانين الفيزياء والكيمياء . وهو يعمل ما يعمله لتعرضه لترتيبات التنوع والاصطفاء . ويدلنا علم وظائف الأعضاء على كيفية عمل الجسد ، بينما يدلنا علما التنوع، والاصطفاء على لماذا عمل الجسد بتلك الكيفية

ويلاحظ هذان العلمان وجود مبدأين سببين مختلفين ، فعلم الدماغ الجسدي يسير وفق قوانين الفيزياء والكيمياء الحتمية ، دون السماح بأية حرية أو مجال للاختيار ، ولم تثبت بعد بشكل حسن صورة «الانسان الآلة» (أي الآلة الحيوية الكيمياوية) . إذ طرح بعض علماء الدماغ ضرورة توافر بعض مظاهر الحرية في الدماغ تسمح بحرية الاختيار والإبداع وما شابه ذلك ، وعندما يقومون بذلك يتحدثون عن عمل الدماغ لا عن بنيته . وقيل أيضاً بأن التنوع والاصطفاء يمكن أن يحدث بالدماغ فالدماغ شأنه شأن بقية أعضاء الجسم يعاني من التنوع ، بينما يتم الاصطفاء في البيئة المحيطة .

وكلما عرفنا معلومات أكثر عن الدماغ الجسد كآلة حيوية كيمياوية ، قلّ اهتمامنا بسلوكه ، وعندها تتوافر الحرية في عشوائية التنوع . فإذا ابتكرت أنماط جديدة من السلوك تخلق عن طريق الاصطفاء . فالأخطاء تؤدي إلى مشكلات عديدة في عمليات التنوع والاصطفاء ، إذ يؤدي ذلك إلى ضرورة المطابقة مع المواقف الجديدة وحل الصراعات ، وإيجاد الحلول السريعة ، ولذلك لا تفيد البيئة الحيوية الكيمياوية المسيّرة بالقوانين الحتمية في مثل هذه الحالة .

وإن محاكاة الحاسوب للسلوك البشري هي أحد أشكال الآلات الالكترونية المصممة لتسلك كما تسلك آلة الجسد الحيوية الكيمياوية ، ونحن نعرف طريقة تصميمها وبنائها ، ولذلك لا نسأل عن أصلها ، وللسبب نفسه لا يُعنى محللو السلوك عناية خاصة بعمليات المحاكاة بل يهتمون بتركيبات التنوع والاصطفاء في بناء الآلة .

إن تحليل السلوك هو العلم الوحيد من العلوم الثلاثة الخاصة بالتنوع والاصطفاء الذي يمكن أن يدرس بالمخابر على مدى طويل ، إذ يلاحظ علماء الإنسان ethologists السلوك في الميدان ، ويعيدون بناء التطور من الشواهد التي تستمر أجيالاً ، ويدعم علم الإنسان بعلم المخبر وعلم الوراثة ، ولكنه لا يستطيع إنتاج أنواع جديدة من مخزون السلوك الوراثي ضمن شروط المخبر . والثقافة ناشئة أولاً عن الاستدلال من التاريخ ولذلك فالسرعة هي الفارق التي نجدها في الإشراط الإجرائي ، وبالتالي يمكن ملاحظتها من بدايتها حتى نهايتها . ولهذا السبب يعد الإشراط الإجرائي العلم الوحيد من العلوم الثلاثة السابقة الذي يمكن أن يستخدم كثيراً لأغراض عملية في حياتنا اليومية .

ويصعب فهم لماذا لم يجلب الإشراط الإجرائي كثيراً من الاهتمام ، فقد أهمل دور تنوع سلوك الفرد واصطفاؤه . ويقفز علم الأحياء الاجتماعي من الاجتماعي إلى البيولوجي ماراً عبر الفرد الرابط بينهما . وأهمل كثير من علماء النفس أيضاً التنوع والاصطفاء . واقترب قانون الأثر منها (عن طريق المحاولة والخطأ) إلا أن تجاربه اقترحت أن يكون التنوع ناشئاً عن المحاولات والأخطاء التي تأتي أثرها . وطبق كل من واطسن ولاشلى ، وهَلْ ، تشكيل العادة

والمثيرات والاستجابات ، وكانت غائية تولمان تحاول التكيف مع الأهداف الذاتية المتوقعة النافعة ، فأسقطت نسخاً من آثار الماضي على المستقبل وجعلها جاذبات للسلوك .

ويعد تحليل السلوك أصغر العلوم الثلاثة ، (إذ ترجع نظريات الاصطفاء الطبيعي وتطور الثقافات إلى أواسط القرن التاسع عشر ، ويرجع تحليل السلوك إلى نهاية الثلث الأول من القرن العشرين) . ولكن عدم نضجه لا يبرر إهماله . وأفضل تفسير لذلك أن مجاله انشغل لفترة طويلة بالحرص النظري الشاذ على نظرية النفس والعقل المضمرة في توليد السلوك .

ونحن لا نتحدث بلغات علوم الدماغ وتحليل السلوك في حياتنا اليومية . لأننا لا نرى الدماغ ولا نعرف الكثير عن تاريخ التنوع والاصطفاء التي أدت إلى حادثة سلوكية معينة . وبدلاً من ذلك فإننا نستخدم لغة مارسناها طويلاً قبل وجود الفلاسفة والعلماء من أي نمط ، وهي لغة عادية مألوفة مشتقة من لغة البيت في حياتنا اليومية ونتحدث بها جميعاً ، في الصحف والمجلات والكتب والإذاعة والتلفزيون . وعندما نتحدث عن سلوك الفرد نستخدم لغة العلماء السلوكيين ، أي علماء النفس والاجتماع والإنسان والعلوم السياسية والاقتصادية . وقد كتب وليم جيمس كتابه «مبادىء السلوك» بلغة عادية ، ويتحدث السلوكيون باللغة اليومية المألوفة . (وينبغي للسلوكيين الشباب تعلم ذلك دون مشقة) .

وتعبر اللغة العادية عن كثير من مشاعرنا وحالاتنا الذهنية ، إذ تقول مثلاً بأننا نعمل ما نشعر بأننا نرغب في عمله ، أو أننا نحتاج إلى العمل لنرضي رغباتنا ، ونقول بأننا جائعون ونفكر بالعمل للحصول على الطعام . ويسهل نسبة هذه الأشياء إلى العقل الذي ولّدها ، ولكننا ، كما رأينا ، فإننا نضع الإيحاءات والافتراضات التي تعود إلى ترتيبات الاصطفاء وبداية الفعل . إذ إننا نستدل من القول «إنني جائع» باننا ننسب للشخص بأنه لم يأكل منذ مدة ، وإنه ربما يأكل عندما يتوافر له الطعام . وعندما يقول «إنني أفكر بإيجاد شيء آكله» فإننا نستدل على قيامه بعمل ما يؤدي إلى حصوله على الطعام .

وإن استخدام اللغة العادية بإيحاءاتها المتصلة بتاريخ الشخص واحتمالات العمل أظهر علم النفس مهنة فعالة ضرورية ومحترمة . أما الرجوع إلى الأصول العقلية أو تحويل اللغة العادية إلى لغة علمية فقد أدى إلى ارتكاب الأخطاء وعزا واطسن والسلوكيون الخطأ بسبب استخدام الاستبطان . إذ ما مدى إمكان رؤية المشاعر والعمليات العقلية ؟ إذ يرون أن استخدام التصورات المنطقية الايجابية بأن الحادثة التي يراها شخص واحد فقط ليس لها مكانة علمية ، وبالتالي فإن الاستبطان ، الذي يبدأ بالنفس والعقل هو المشكلة .

وعندما يواجه شخص شخصاً آخر ، فلا مناص عندها من اللجوء الى النفس البادئة بالعمل . ولذلك نستخدم الضمائر «أنت» ، «أنا» ، «فأنا» أرى ما تعمله «أنت» و«أنا» أسمع

ما تقوله «أنت» و«أنت» ترى ما أعمله «أنا» و«أنا» أسمع عندما أقول «أنا» وهكذا فنحن لا نرى تاريخ الاصطفاء المسؤول عن العمل ، ولا نستدل عن الأصل الداخلي ولكن استخدامنا للغة العادية بنجاح لا يؤدي الى تحسين استخدام علم النفس كعلم . فالتحليل العلمي ، وتاريخ التنوع والاصطفاء يلعبان الدور المناسب في بيان «البادىء» بالعمل ، ولذلك لا مكان لاستخدام العقل أو النفس في التحليل العلمي للسلوك .

إذن ماذا يجب على علماء النفس ان يعملوا تجاه المحاولات التي جرت خلال المئة سنة الماضية لبناء علم العقل ؟ وماذا بشأن تحليلات الذكاء الساطعة ، أو الادعاءات بقيمة مفهوم الذاتية من المنفعة المتوقعة ، أو ما شابه من المفاهيم التي كتبت لتصف (المكان النفسي) ؟ أليست هذه أجزاء من بحث عن شيء غير موجود ؟ يبدو اننا لا بد ان نقول هذا ، دون أن نفقد كل شيء ، فالذكاء ليس عملية استبطانية ، بل هو استدلال عن السلوك الذي وضعت منه عينات في روائز الذكاء ، أما تحليل انواع مختلفة من الذكاء فهو تحليل أنواع مختلفة من السلوك . والتوقع هو نوع آخر من «الرؤية» لا يقتصر على رؤية المستقبل ، بل هو نتاج ترتيبات التعزيز الماضية . وتعني المنفعة الاستفادة والاستخدام والفعل والقيام بعمل ما يؤدي الى عواقب وآثار معينة . فالمكان النفسي هو مكان حقيقي عندما ندخل في مجال التحكم بترتيبات التعزيز . وهي قضية يقدم فيها المثير ويعمم تعزيز الاستجابة بطريقة يتكرر فيها المثيرات المشابهة التي لم تكن موجودة في أثناء عملية التحكم . وباختصار فإن علماء النفس ، كانوا يحللون ترتيبات التعزيز دون وعي منهم ، لأنهم كانوا يبحثون عن الترتيبات المسؤولة عن السلوك الذي أخطأنا بنسبه الى العضو الداخلي المولد له .

وماذا نقول عن الفلاسفة الذين جهدوا خلال قرون طويلة اتباع الاسلوب نفسه الذي استخدمه كهنة دلفي بالتعرف على ذاتهم بالاستبطان ؟ فهل هناك مبرر لذلك ، أليسوا يسعون دون جدوى الى مشيئة الروح ، وانه نوع من الغطرسة ، ويشبه بحث الناس لفترة أطول من الزمن عن الخالق الواحد الأحد ، والذي حاول العلم البحث في انجازاته ، إلا أن دارون وضع حداً لذلك بعمله الذي ينطبق على أصل سلوك الأنواع وكذلك أصل سلوك الفرد ايضاً .

وبعد قرن ونصف تقريباً ما زال التطور لا يفهم على نطاق واسع ، فقد عارض نظرية التطور بعنف دعاة الخالق ، ونتيجة لذلك يصعب تدريس علم الأحياء بشكل سليم في المدارس الاميركية ، ويدرس مكانه علم الخلق ويعاني دور التنوع والاصطفاء في سلوك الفرد من المعارضة نفسها . ويبدو أن العلم المعرفي هو خلق علم خاص بعلم النفس لأنه يجهد الى المحافظة على مكانة النفس والعقل .

ويمكن التعرف على ذلك من تاريخ علم النفس الذي بدأ منذ مئة عام ، بالبحث عن العقل ، فهاجم واطسن في بيانه السلوكي عملية الاستبطان عام 1913 ، ولهذا ولأسباب اخرى بدأ علماء النفس يهجرون الاستبطان ، واستداروا الى دراسة السلوك فحسب ، بينما تحول العلماء غير السلوكيين الى دراسة سلوك المعلمين والطلاب والمعالجين وزبائنهم والاطفال الذين ينمون سنة بعد اخرى ، والناس في جماعات وغير ذلك . وحاول علماء النفس المعرفيون الاستفادة من الأمر الواقع ، فأعلنوا ان السلوكية ماتت ، ولكنهم لا يقصدون بذلك ان علماء النفس توقفوا عن دراسة سلوك الحيوانات في المخابر والطلاب والمدرسين والمعالجين وزبائنهم ، وغير ذلك من أنواع السلوك . ان ما أملوا أن يموت هو اصطفاء العواقب لتفسير السلوك ، وان يستعيد العقل ، والدماغ مكانته الصحيحة في حال الاخفاق .

ويسهل فهم علم النفس المعرفي باستخدام اللغة العادية ، وبحوث الثورة المعرفية لفترة من الزمن ، وهذا ما سرع في أبعاد محللي السلوك عن القضايا الراسخة في علم النفس ، فأنشأوا هيئاتهم الخاصة واجتماعاتهم الخاصة ، وطبقوها في ميدانهم ، ولذلك يمكن وصفهم بأنهم انشأوا جيتو (اوحي مغلق) خاص بهم ، ولكنهم ببساطة قبلوا الحقيقة البسيطة بأنهم سيكسبون قليلاً من دراسة العقل الخلاق .

لقد تخلي عن علم النفس المعرفي كرفيق علمي في المهنة ، لأنه علم يبحث في اعماق مجال علم النفس ، كالمجالات التربوية والعيادية والتطورية والاجتماعية ومجالات اخرى . وما زال يشك في مدى فائدة هذه المجالات . وان استخدام اللغة العادية المعدلة لتناسب دراسة الحياة العقلية قلما يفيد اكثر من فائدة اللغة العادية ، وخاصة عندما بدأوا باستخدام النظرية بدلاً من الاستبطان ، والأفضل هو استخدام تحليل السلوك الذي يمكن ان يساعد في العلم بطريقتين هما تحليل ترتيبات التعزيز التي بدأت بها اللغة العادية ، وتصميم بيئة أفضل ، أي بيئة تمكن الانسان من حل مشكلاته الراهنة ، وبيئة أوسع أو ثقافات تقل فيها المشكلات . وان الفهم الأفضل للتنوع والاصطفاء يعني تحسين المهنة . ويترك للأجيال التالية لتقرر فيما إذا كانت ستبقي على اسم علم النفس على التحليل السلوكي .